الهوية الثقافية وبيداغوجيات التعليم

عبد الله أيمن سعيد، طالب بسلك الدكتوراه
كلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس بالرباط
المملكة المغربية

ملخص:

يفيد موضوع هذا المقال أن يبحث في طبيعة العلاقة القائمة بين الهوية الثقافية الخاصة بالشعوب والممارسات البيداغوجية التي تتم داخل الأوساط المؤسساتية، كما يعرض أيضا الإمكانية المتاحة من طرف الأوساط الثقافية و دورها الفاعل والدينامي في بناء نموذج بيداغوجي يتماشى مع طبيعة الثقافة السائدة لدى الشعوب، مما يشكل وعيا وانسجاما تربوي جديد يتماشى مع حاجات الفرد ومع الدواعي الرسمية لعملية التعليم والتعلم، دون إقامة فوراق وقطائع التي تحول دون بناء مواطن منسجم، يشعر بنوع من الثقة والاستمرارية بين ما يتلقاه ثقافيا وما يتبناه تربويا، كما أن هذا المقال هو تفكير في الطبيعة الجدلية القائمة بين البنية الثقافية للمجتمعات والبنية التربوية لها .

مقدمة

تعتبر قضية الهوية الثقافية في مجال التعليم والتربية إحدى الدعائم والركائز التي أصبحت المناهج التربوية في حاجة ماسة للتعامل معها سواء من حيث الفهم النظري أو المجال المنهجي أو الممارسة التطبيقية ، وقد ارتبطت قضية الهوية الثقافية بمجال العلوم الإنسانية خاصة في ما يخص مجال علم الاجتماع والانثروبولوجيا على وجه الخصوص، كما أن هناك مجموعة من الدراسات والأبحاث في مجال علوم التربية التي ركزت على دعامة الهوية الثقافية في بناء هويتها التربوية ،خاصة عندما نتحدث عن مناهج التربية والتعليم وكذا عن بناء مشروع مدرسي متكامل منسجم، يتماشى مع الخصوصية الثقافية والحاجة المعرفية دون أن تقع هذه الغايات التربوية في تعارض مع قيم المجتمع وقواعده الثقافية والأخلاقية ، لذلك ففهم طبيعة الهوية الثقافية التي تتمتع بها الشعوب أو فهم ما يصطلح عليه بروح الشعوب حاجة ملحة ومهمة لمجموعات من المجالات وخادمة للمجموعة من المؤسسات ، ومن بين ذلك مجال التربية والتعليم، إذ لا يمكن صياغة مشروع تربوي متكامل دون استثمار ثقافة الشعوب وخصوصيتها اللغوية والمعرفية ومرجعيتها التي تشكل بنية من القواعد والضوابط ذات البعد الأخلاقي والاجتماعي ، بل إن عدم فهم البنية الثقافية يفتح المجال أمام بناء مشروع يتعارض كلية مع الحاجات وأحيانا يتجاوزها وأحيانا أخرى يكون دون التطلعات وهو ما يؤدي إلى خلق هوة بين مستوى التخطيط وبين المنجزات مما يفرض بالضرورة تارة بعد أخرى التدخل تحت شعار الإصلاح التربوي، والواقع أن الإصلاح لا يخدم بشكل دقيق العملية في صميمها بل يعمق مرة أخرى المسافة بين حاجات المجتمع وبين المشروع التربوي .(**الهوية الثقافية : المفاهيم والأبعاد والقيم، مدكور علي أحمد ، طبعة 2013**).

وفي المستوى البيداغوجي يغيب بشكل ملحوظ استثمار ثقافة الشعوب في عملية التعليم و التعلم، بل إن بعض البرامج والمناهج لا تتمتع بهوية معرفية دقيقة ، فتطور مناهج البحث في مجال البيداغوجيا اسفر على محاولة عولمة هذه المعرفة جاعلا من النظريات المشتركة قابلة للتطبيق و الاجرأة كيفما كانت طبيعة الشعوب، وهنا سقط مجموعة من البيداغوجيين في مجال محاولة تنميط هذه النظريات البيداغوجية تحت دعوى المشترك الإنساني والثابت معرفيا ، وهنا يغيب عملية تكيف هذه البيداغوجيات ذات السياق المعرفي والاجتماعي المحدد مع خصوصية الشعوب ومع قدرتها على استيعاب المطلوب مما ينعكس بشكل واضح على إحداث خلل في البنية الثقافية من جهة ، وبناء متعلم هجين من جهة

أخرى لا يمتلك الحد الأدنى من منجزات عمليات التعليم ، وبذلك فإن المشاريع التربوية والبيداغوجيات التعلمية عليها أن تستثمر المعطيات الثقافية وخصوصيات الشعوب في بناء عملية التعليم والتعلم ، باعتبار أن هذه الخصوصية الثقافية تساهم بكيفية دقيقة في بناء تربية المتلقي داخل مجال التنشئة الاجتماعية، و لا يحصل قطيعة بين المجال الأم الثقافة واللغة والعادات والتقاليد وبين المجال البيداغوجي الرامي إلى بناء مواطن بمؤهلات ومقومات محددة، بل إن استثمار ثقافة الشعوب وهويتهم الخاصة يساهم في بناء المشروع التربوي ومنحه معالم تنسجم مع مجال الممارسة، و ينتج عن ذلك مؤشرات قابلة للقياس و للفاعلية، وبذلك فإن الحاجة لفهم الهوية الثقافية للشعوب هي حاجة ملحة في مجال التربية، ترتبط ببناء مشروع تربية خاصة، والفهم الدقيق للهوية الثقافية يستحضر بالضرورة ادخال مجال الانثروبولوجيا إلى علوم التربية، وفتح المجال أمام دراسة وتدريس انثروبولوجيا التربية بمختلف المدارس والمعاهد العليا المهتمة بقضايا التربية، خاصة منها بالمدارس العليا للأساتذة والمراكز الجهوية للتربية والتكوين بالمملكة المغربية، لأن ذلك من شأنه أن يساهم بكيفية منهجية في بناء مشروع تربوي دقيق ومتكامل وينسجم مع طبيعة المجتمع ومع خصوصيته الثقافية، كما أن الأمر من شأنه أن يفتح المجال أمام وعي تربوي بأهمية استثمار ما هو ثقافي في ما هو تربوي **(مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، محمد عمارة، طبعة 1999)**.

1. ماهية الهوية الثقافية ودورها في بناء المشاريع التربوية

تعتبر الهوية الثقافية بمثابة الروح للشعوب، إذ أنها تعبر بشكل دقيق عن المشترك وعن المرجعية وعن البنية الرمزية الجماعية والفردية التي تشكلت بواسطة تداول الأجيال من خلال عملية التلقين والنقل الثقافي، وعبر مسار تاريخي طويل فالذي ميز الشعوب بعضها عن بعض هي الهوية الثقافية، فهذه الهوية التي ترتبط بالذات والفكر ونمط العيش وتتجاوز ذلك نحو بناء ما هو نفسي وما يشكل القرار وعمليات الفكر، بل إنها تسمح أحيانا ببناء طبيعة الشخصية والنفسية الجماعية من قبيل مفاهيم : الكرم والجود والشجاعة... وقيم أخرى متعددة، التي يستحضرها الفرد في مخاطبة ذاته تجاه الواجب في معاملة الجماعة أمر ضروريا في بناء مشروع اجتماعي متكامل ، فهناك مجتمعات تتمتع بهوية تقليدية أو يمكن القول عنها بأنها هوية بنيوية، بينما هناك مجتمعات تسعى إلى بناء هويتها من خلال قيم مفكر فيها وهي ما يصنف ضمن مشاريع الهوية الثقافية ذات الطبيعة السياسية أو السيادية[1] ، والواقع أنه من وجهة نظر سوسيولوجية لا يمكن تصور مجال اجتماعي معين دون هوية محددة، بل إن علم الاجتماع تجاوز ذلك ليعلن عن فئوية الهوية داخل المجال الاجتماعي الواحد ، فلا يكفي جمهرة الناس داخل مجال جغرافي محدد وفتح المجال أمام المؤسسات والخدمة وتبادل المصلحة حتى يصطلح عن هذا التجمهر البشري لفظ شعب ، بل إن هذا اللفظ في حاجة إلى بناء ثقافي يتحدد بشكل ظاهر في الهوية الثقافية، وقد شكل موضوع الهوية الثقافية مجالا للبحث في علم الاجتماع وعلم النفس والعلوم السياسية... والانثروبولوجيا [2]، إذ اعتبر هذا الموضوع مدخلا لفهم ما بعده ولبناء تطلعات بشرية تسعى نحو نموذج بشري متكامل.(**التعليم وأزمة الهوية الثقافية ، عطيه محمد عبد الرؤوف ، طبعة 2009**).

وفي مجال التربية لا يغيب مفهوم الهوية الثقافية، علما أن عملية التربية تساهم في قضية تشكل الهوية الثقافية، كما أن هذه الهوية الثقافية تساهم في بلورة واجرأة عمليات التربية، إذ يمكن أن تساهم الهوية الثقافية في بناء مشروع تربوي ناجع وناجح، كما يمكن أن تتحول هذه الهوية إلى عائق أحيانا أمام المشاريع التربوية ، وهوما يفرض بالضرورة أن تتوجه المؤسسات التي تعنى بمجال التربية باستحضار الهوية الثقافية ضمن مجالات بحثها وضمن الاهتمامات الواسعة نحو بناء مشاريع تربوية شاملة وهادفة.

---

[1] . يتعلق الأمر هنا بالكيفية التي يتم من خلالها بناء المشاريع البيداغوجية، ضمن ما يعرف بالرؤية الاستراتيجية أو بالخطط السياسية التي تحدد طبيعة الممارسة التربوية بشكل يتماشى مع أهداف الدول وغاياتها.

[2] . إحالة على الاختلاف المعرفي والمنهجي الحاصل في تحديد دلالة الهوية الثقافية بين مختلف العلوم الاجتماعية، إذ لم يعد لمفهوم الهوية طبيعة ثقافية فقط بل أصبح يدل على أبعاد فلسفية وفكرية ... وغير ذلك.

فكيف تساهم الهوية الثقافية في بناء المشاريع التربوية؟ هل نحن في حاجة إلى بناء مشروع بيداغوجي ينسجم مع طبيعة الخصوصية الثقافية ؟ أم نحن في حاجة إلى نماذج بيداغوجية تتجاوز ما هو هواياتي نحو مشروع اجتماعي أكثر فاعلية ؟ وما هو الدور الذي تلعبه الهوية الثقافية في بناء المشاريع التربوية؟ هل تشكل مرجعا في عملية البناء أم عائقا أمام تحقيق المقاصد والمرام ؟[3]

يشكل موضوع الهوية الثقافية في مجال الأبحاث التربوية مجالا من بين الركائز والدعامات الأساسية التي يتم توظيفها في بناء المشاريع التربوية الموجهة ذات الطبيعة الثقافية، كما تشكل أيضا قضية الهوية الثقافية مجالا لقياس مدى نجاعة المشاريع التربوية والإصلاحات المدرسية، ويعود مرد ذلك إلى فرضيات علمية متعددة في مجال بناء المشاريع وفي مجال التخطيط التربوي في بعده الاستراتيجي، لذلك من بين التحديات المركزية التي تواجه السياسات التربوية في جل الدول والمجتمعات هو قدرتها على الانسجام مع المعطيات الثقافية للشعوب خاصة المجتمعات ذات الطبيعة الثقافية (**التنوع الثقافي والعولمة ،مارتان أرمان ، طبيعة 2005**) المتعددة الروافد وذات المرجعيات المختلفة سواء على مستوى الدين أو اللغة أو التاريخ ... لكن من الجدلي أن تغيب هذه الفرضيات داخل بنية بعض المجتمعات نظرا لخصوصيتها التي تعكس الرغبة في التقفي فقط ، خاصة وأن مجال البحث البيداغوجي يعتبر حديثا قياسا على معارف وعلوم أخرى، لكن هذا لا يستبعد ضرورة الاشتغال على الجانب الثقافي فيما هو تربوي بل يعزز ذلك بشكل قوي ، خاصة وأنه ما زالت علوم التربية تعيش على نقاش هل التربية تؤسس للثقافة ؟أم الثقافة تؤسس للتربية ؟(**الهوية الثقافية : المفاهيم والأبعاد والقيم ، مدكور علي أحمد ، طبعة 2013**).

وهذه المفارقة التي يطرحها هذا الاشكال هي ما تدعم الفرضيات العلمية التالية :

. الفرضية الثقافية : تعتبر هذه الفرضية للأسباب بنيوية وانثروبولوجية بأن عملية التربية بمختلف تجلياتها لا تعدو أن تكون مجرد محاولة لصناعة ما هو ثقافي ، وبأن القصد من عملية التربية وبشكل أشمل التنشئة الاجتماعية وهو بناء فرد يتبنى بشكل فكري وسلوكي ثقافة الجماعة، وبذلك يصبح حامل للمشروع ثقافي جماعي، وبهذا فإن عملية التربية تتحول إلى مجرد وسيلة لبناء ما هو ثقافي، والية مباشرة وعملية لتقديم خدمة له ، وعليه فإن الخلفية البيداغوجية عليها أن تستحضر بشكل قوي ثقافة الجماعة أو ما عبر عن بالهوية الثقافية في بناء الفرد ، ولن ينبغي أن يحصل التعارض بين المشاريع التربوية وبين غايات المؤسسات التربوية وغايات المجتمع، بل ينبغي أن ينبي الأمر على انسجام دقيق بين مدخلات المشروع التربوي ومخارجته الثقافية الرامية إلى تعزيز قيم المجتمع وإلى تبني أفكاره، فكل مشروع تربوي لا يعتمد على دعامات ثقافية كتوظيف الحكاية الشعبية والأمثلة الثقافية و التربية على قيم الجماعة وضوابطها الأخلاقية،(**انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ديل ايكلمان، طبعة 2022، مؤمنون بلا حدود**) هو مشروع لا ينسجم مع بناء مشروع ثقافي، بل يتعارض مع الهوية الجماعية ما يسمح ببناء فرد يعيش أزمة انتماء، وسبب هذه الأزمة بالدرجة الأولى المشاريع التربوية التي تقوم على القطيعة بين ما يمنحه المجتمع للفرد من استعدادات وتوجيهات وبين ما تنتهجه المشاريع التربوية من إجراءات بيداغوجية في عملية التعلم[4] .

. الفرضية التربوية : هي فرضية تدعم بشكل قوي استقلالية المشاريع التربوية، وتعتبر أن الفرد هو مدخل لصناعة الجماعة وليس ذات حاملة لمشاريعها ، بل إن عملية التطور الاجتماعي ترتبط بإقامة قطيعة ابستمولوجية بين البنية الثقافية السائدة نحو بناء جديد يتماشى ووضعيات العيش السليم، وبذلك فالمشاريع التربوية هي وسيلة لتغير ثقافة المجتمع وليست مجال لتبني هذه الثقافة، فالتربية هي ما يصنع الثقافي ويعزز حضوره، وبذلك فالمشاريع التربوية والممارسات البيداغوجية ينبغي أن تتمتع بالاستقلالية إزاء ثقافة المجتمع، وهذا لا يمنع من توظيف المعطيات الثقافية كوسيلة لتحقيق الكفايات المطلوبة ، بل يمنع اعتبار المشاريع التربوية وجه اخر لمشاريع المجتمع، وتعتبر بذلك قضية الهوية الثقافية قضية نسبية أمام تملكيات لقدرات ومهارات جديدة من خلال عملية التعلم التي تسمح بتجاوز القيم والثقافة السائدة نحو بناء

. هذه الاسئلة عبارة عن توجيه منهجي وقلق فكري يحاول الوقوف عند عمق العلاقة القائمة بين الثقافة والتربية داخل المجالات الاجتماعية مع الوقوف على فرضيات تعزز إمكانية الوصول للنتائج . [3]

. الفرضيات الية من أدوات الاشتغال قصد إقامة المقارنة بين التصور الثقافي والتصور التربوي فيما يتلق بتشكل البنية أو الهوية داخل المجتمعات. [4]

اجتماعي جديد يعزز وجود الفرد أكثر من وجود الجماعة، ويجعل من ثقافة المؤسسات أقوى من ثقافة التناقل الجيلي.[5](**مخاطر العولمة على الهوية الثقافية ، محمد عمارة، طبعة 1999**).

و من خلال هذه الفرضيات التي تشكل خلفية و مرجعية للتفكير في علاقة الهوية الثقافية في بناء مشاريع تربوية والتحكم في بيداغوجيات التعلم، فإنه يحضر بشكل ضروري وإلزامي أهمية التفكير في صياغة بيداغوجيات تتلاءم مع الحاجة الثقافية للشعوب ، بل ينبغي العمل بشكل منهجي على استثمار ثقافة الشعوب في عملية التعليم والتعلم واقامة ركائز اساسية تجعل من شخصية المتعلم شخصية تعيش وضعية خاصة في انسجام مع المحيط الثقافي الاجتماعي ومع المحيط التربوي التعليمي وأن يشكل هذا الكل في شخصيته بنية تربوية متكاملة لا بنى متعددة متعارضة فيما بينها، بل من الايجابي اقامة جسر معرفي بين ثقافة الفرد الاولى والثقافة العالمة وكل ذلك لبناء فرد متكامل البنية يشعر بذاته فيما يتعلمه ولا يجد حرج في الاخذ من الثقافة العالمة نحو الثقافة الشعبية والعكس كذلك.

2. البناء البيداغوجي داخل الصرح الثقافي

إن التركيز على الممارسة البيداغوجية والوعي بأبعادها الحقيقية ودورها الفاعل في بناء شخصية الفرد يسمح بإعادة النظر في طبيعة هذه الممارسة ، التي تحتاج إلى نوع من العقلنة الملزمة وهو الدور الذي تقوم به النظريات العلمية وتعززه مناهج البحث، لكن عندما يتعلق الأمر بالوقوف عند طبيعة الناس الثقافية فإننا هنا نكون أمام هوية تحتاج منا إلى الاستثمار الايجابي، لا إلى التخاصم والتنافر معها ، وجدل هذا ما يحصل عندا نحاول أن نأتي بعناصر الممارسة البيداغوجية كفكر وفعل تربوي خارج المنطق الثقافي السائد داخل البنية الاجتماعية ، ومن أوجه التعارض التي تواجهها المؤسسات التي تعنى بالشأن التربوي على سبيل المثال أزمة لغة التدريس في المدرسة، فإذا تأملنا المجال المغربي نجد أوساط ثقافية متعددة واختلاف لغوي ظاهر بين المجالات ، والنتيجة أن طبيعة التعلم لا تكون وحيدة ، فإما أن يجد الطفل نفسه أمام تعارض قائما بينه وبين لغته الأم، وإما يحاول جاهدا أن يجد لنفسه موقعا خاصا به أمام اللحظة الثقافية الجديدة ، وهذا يحدث نوعا من التباين والتعارض داخل البنية والمجال الاجتماعي الواحد، الذي يخضع لمعيار الانتماء والطبقة والحاجة إلى المدرسة[6] .(**انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ديل ايكلمان، طبعة 2022، مؤمنون بلا حدود**).

إن الممارسة البيداغوجية كممارسة واعية ملزمة بالاجتهاد قدر المستطاع لتحقيق نوع من الغايات ذات الاثر الفعلي والملموس، ولذلك يجدر على الممارسة البيداغوجية أن تنهل من المجال الثقافي لها، وأن تستمد منه خلفيتها النظرية والممارسة التطبيقية ، وعلى سبيل المثال فهناك تجارب دولية في هذه الممارسة خاصة في ما يعرف بلحظة التعليم الأولي، الذي يشكل لبنة اللقاء مع هذه الفاعلية العاقلة ، وأكيد أن ممارسة التربية تتجاوز الحد المؤسساتي نحو ممارسة حر ذات اثار مختلفة .[7](**رهانات البيداغوجيا المعاصرة ، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، عبد الحق منصف ، افريقيا الشرق**).

ولذلك فإن الطريق المعبد نحو بناء ممارسة بيداغوجية تنسجم مع الواقع الثقافي للشعوب ، يبتدأ من فكرة أن تدرك الشعوب خصوصيتها الثقافية وأن تبحث في أبعاد ذلك ، خاصة في أنماط التعليم والتعلم والكيفية التي بها يسعى هذا المجتمع إلى بناء نموذج تربوي له ، وإلى جانب هذا الوعي فإننا في حاجة إلى إعادة النظر في طبيعة الممارسة التربوية في حد ذاتها ما يكلف هذا البناء ويدعم حضوره ، كما أننا في حاجة إلى الوقوف عند طبيعة المؤسسات التي توكل لها مسألة التربية .

---

[5] . يرتبط هذا التصور باعتبار أن التربية هي أداة انتاج الثقافة، خاصة في الأوساط المنظمة وداخل حيز المؤسسات، وتشكل التربية هنا الية لتحقيق التغيير الثقافي والاجتماعي والفكري.

[6] . الممارسة البيداغوجية داخل منهج المشاريع السياسية هي نوع من العناصر والبرامج والمناهج التي تهدف إلى تحقيق غايات محددة من حيث الزمان والاثر وتنسجم مع الواقع العملي والعلمي، كما أنها تستجيب لمتطلبات سوق الشغل ولحاجات الدولة والمجتمع.

[7] . يتعلق الأمر هنا بالدينامية الفاعلة التي تحصل داخل المؤسسات التي توكل لها عملية التربية والتعليم أو ما يصطلح عليه بالممارسة البيداغوجية كعملية منهجية تتدخل فيها مختلف الأطراف والوسائل والفعاليات.

عندما نتأمل البنية الثقافية للشعوب نلاحظ بأنها تتميز بنوع من الغنى المعرفي والمنهجي، كما أن ما يعرف بالثقافة البسيطة هي غنية بالممارسة التربوية ، فمن هاجس الثقافة رغبتها في الحفاظ على ذاتها من خلال الثورات الثقافي عبر الأجيال، ولذلك نجد أن العقل الثقافي يفكر بشكل فاعل في إمكانية بناء مشاريع تربوية تضمن له ذلك ، لذلك فالعقل الثقافي هو عقل ممارس للبحث البيداغوجي، وهذه الأدوار التربوية تتجلى واضحة في الحكايات والأمثلة الشعبية والرموز و عمليات التأديب إلى غير ذلك مما يتخذ صفة الوعي البيداغوجي داخل الحقل الثقافي، لكن ما ينغي التنبيه له أن طبيعة الممارسة الثقافية عند الشعوب مختلفة(**انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ديل ايكلمان، طبعة 2022، مؤمنون بلا حدود**)، فحين أن الممارسة البيداغوجية بالشكل الرسمي هي واحد تنهل دائما من نفس النظريات وتسعى لنفس الغايات وتنتظر نفس النتائج، والواقع عكس ذلك، فطبيعة شعوب وممارستها الثقافية التي تحدد هل المشاريع التربوية الرسمية ستقبل الانسجام أم التلقي المقاوم[8] ، أي ما يشكل نوعا من الثقل النفسي على هذا المتلقي، بل إن هذه الممارسات قد تسمح أحيانا في جعل المتلقي لهذه البرامج والمناهج يعيش نوعا من القلق البين ذاتي، يظهر في شكل ما يمكن وصفه بالانفصام الذاتي القائم بين ثقافة الفرد وبين الثقافة الجديدة المحددة في الممارسة التربوية.

إن أي استثمار بيداغوجي عليه أن يحترم البعد الثقافي وأن ينسجم معه، دون أدنى محاولة التفاف أو تنقيص أو إقامة قطيعة ، لكن قد يتساءل بعض المهتمين حول كيفية بناء جسر التواصل هذا ، إن الأمر يتطلب تحصيل وعي بالخصوصية الثقافية مبدئيا ثم بعد ذلك استثمار ما تتميز به في اقامة كمشاريع بيداغوجية تنهل من الوسط الثقافي فيما يتعلق بالدعامات والمستندات ولما لا التصورات كذلك.

نجد عندما نتأمل الموارد الثقافية[9] قابلية منهجية تسمح بإمكانية الاستثمار وإعادة التوظيف بكيفية تلائم طبيعة البرامج والمناهج التعليمية، ومن ذلك القصص الشعبية والأمثلة التي تشكل في بداية الأمر واقع ثقافي معاش بالنسبة للمتعلم، كما أن الصور والدعامات والوضعيات المشكلة لابد لها أن تنهل من معين العطاء الثقافي، وتساعدنا انثروبولوجيا التربية هنا على تأسيس هذا الوعي بخلفية منهجية دقيقة قد تقدم لنا صورة واضحة حول طبيعة هوية هذا المتعلم وحول نظرتها للمؤسسات التربوية، وهل تتوفر نقط الالتقاء بين المعاش اليومي والذهنية وبين الواقع التربوي الممارس؟

إن البناء البيداغوجي وباعتباره عملية مصممة ذات أبعاد وأهداف محددة في حاجة ماسة إلى الجانب الوعي النظري إلى الممارسة التطبيقية التي تسمح ببناء جسر التواصل بين أهداف المدرسة وغايات المتعلم وواقع المجتمع وتطلعات الدولة ، لكن عندما نتجاوز هذه الأبعاد وعند غياب الشروط الثقافية نجد أنفسنا إزاء برامج ومناهج هجينة تتعارض مع الهوية الثقافية، بل ثبت هوية متناقضة لها، مما يؤسس للنوع من القطيعة مع البنية الثقافية[10] من جهة ونوع من القلق الذاتي، وتصبح ثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه غريبة على أبناءه، إن أي مشروع بيداغوجي عليه أن يشترط في ذاته ضرورة احترام الخصوصية الثقافية، ومن ذلك يمكن بناء برامج بيداغوجية ذات طبيعة جهوية أو محلية حسب الحاجة والغاية مما يسمح للمتعلم بوضع ذاته داخل البرنامج الذي ينسجم وحاجاته وخصوصيته دون أدنى قطيعة أو قلق، وقد خاضت بعض

. يتحدد عنصر الانسجام بين الممارسات البيداغوجية والهوية الثقافية من خلال الوعي بماهية هذه العناصر وما تتشكل عليه، لذلك يتطلب بناء المشروع البيداغوجي نوع من الوعي المعرفي والمنهجي لطبيعة الهوية الثقافية.[8]

. تشكل الموارد الثقافية مختلف ما تتوفر عليه الشعوب داخل بنيتها الثقافية سواء على المستوى اليومي العادي أو المستوى الرمزي الخفي من قصص وحكايات وأمثلة ...[9]

. البنية الثقافية دلالة على مختلف المكونات التي تشكل وحدة منسجمة لدى الشعب، وتعتبر هذه البنية مجموعة من القواعد التي يتلقها الفرد كعنصر داخل الجماعة يتفاعل معها ويتفاعل بها مع مختلف المكونات. [10]

الدول غمار هذا المشروع واستفادة منه خصوص أنه يقرب المعرفة من المتعلم ، ويركز على المعرفة الأساس، ويساهم في الاجتهاد البيداغوجي والتجديد المنهجي، ويحترم الفوارق والأقليات والخصوصيات الثقافية[11] .(**مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، محمد عمارة، طبعة 1999**).

إن بناء مشروع بيداغوجي ينسجم كع الهوية الثقافية يحقق نوع من الانسجام المتكامل بين بنية الفرد الفكرية والثقافية والحاجات الاجتماعية ، وبذلك فإن الوعي بأهمية توظيف بيداغوجيا تنسجم والواقع الثقافي هو شيء أساسي ومركزي، بل ينبغي على المؤسسات التي تعنى بهذا الشأن تتصف بدرجة عالية من الوعي بأن المسألة الثقافية لا تشكل مجرد التزام من الفرد تجاه الجماعة، بل تشكل نوع من الكينونة التي لا يقبل الإنسان القطيعة معها.

وبذلك فالصرح الثقافي هو مجال منفتح أمام الممارسة البيداغوجية، لأن المجال البيداغوجي يهدف إلى الوصول إلى أعماق ذات الفرد حيث توجد الهوية أيضا ، مما يعزز لهذا الشغل نوع من التعليم والتعلم التلقائي المنسجم مع متطلباته ومع بنيته النفسية والثقافية.

عندما نتأمل المشاريع التي تشتغل على الهوية الثقافية نجد اهتماما بالحدث في مقابل الفكرة، عكس الممارسة البيداغوجية التي تتصور الغاية هي الفكرة وأن الحدث مجرد ممارسة نتوسل بها لتحقيق هذه الغاية أو تلك ، لكن ما يحصل هو غياب الوعي الذاتي والجماعي بأهمية استثمار الحدث في بناء المشاريع التربوية، إن مطلب الانسجام بين القناعات الثقافية وبين التوظيفات البيداغوجية مسألة أساسية، لكن قد يستوقف البيداغوجي الكيفية التي سوف يتم بها هذا الاستثمار، الواقع أن ثقافة الشعوب تضمن في بنيتها اليات التوظيف البيداغوجي وطرائق التلقين والتعليم والتعلم، بدأ من تمثل المجتمعات حول طبيعة هذه الممارسة، لذلك فثقافة الشعوب قد تجعل العقاب والعنف والرمز والخيال مفاهيم أساسية في طرائقها التعليمية والتربوية ، ولذلك نجد قلق حقيقي بين التصور الاجتماعي الثقافي للمدرسة وأدوارها وبين الممارسة البيداغوجية.[12](**رهانات البيداغوجيا المعاصرة، عبد الحق منصف، افريقيا الشرق**) إن الخلفية النظرية قضية أساسية فيما يتعلق بتفعيل هذه الالية وضمان هذه الممارسة، التي تكون الغاية منها التجويد والفاعلية والدينامية داخل المجال التربوي ، وبذلك فإن التنبيه إلى أن الهوية الثقافية هي دعامة وأسس للممارسة التربية النظامية والرسمية مسألة ضرورية ، إن المدرسة كفضاء بيداغوجي هي مجال لممارسة الاستمرارية الثقافية ومجال لإعادة قياس الثقافة الشعبية والسائدة والوقوف عند ما يمكن استثماره بها لأجل بناء أفضل، فعلى سبيل المثال إن حكاية الجدة قد تشكل دعامة أساسية في تعلم القراءة والكتابة والحساب والأخلاق، كما يمكن أيضا توظيفها في إطار وضعية مشكلة تعزز الفكر وتفتح المجال أمام التحليل والنقاش، كما أن الموسيقى الشعبية قد تشكل في الممارسة البيداغوجية دعامة لتثمين الذوق الجماعي وتعلم الرقي واليات النظر الجمالي في الأشياء، كما أن الأشكال الهندسية والتصاميم التقليدية قد تشكل موضوعا للتعلم والفهم[13] .

إذا كانت الممارسة البيداغوجية تسعى إلى قياس مهارات وكفايات وقدرات محددة، فإن ما يشكل الهوية الثقافية تعزز هذه النماذج وتسمح من خلال المرونة التي تكتسيها الثقافة في بناء مشروع بيداغوجي متكامل يتماشى مع حاجيات المجتمع ومع الخصوصية الثقافية ، وبذلك فإننا نسخر الثقافة لخدمة المشروع البيداغوجي والتربوي وندعم من خلال بناء قدرات خاصة عند المتعلم تتماشى وواقع الحال لكن تستجيب لما يشكل نوعا من البنى الأولية لهذا المتلقي، وتغنيه عن متاهة التعارض والتناقض بين المرجع الثقافي والممارسة البيداغوجية .

. الخصوصية الثقافية والأقليات تشكل مرجع ثقافي داخل البنية الثقافية وتتمتع مختلف الشعوب بهذه الوضعية والتي تكون إما نتيجة منسجمة متناغمة أو وضعيات متعارضة ومختلفة وتعيش بذلك هذه الأقليات إلى جانب الخصوصية الثقافية نوع من الخصوصية النفسية نتيجة الإقصاء أو التهميش أو التخلي في بعض الأحيان . 11

. الممارسة البيداغوجية مختلف العمليات والوضعيات والاجراءات التي تهدف إلى تحقيق غايات وأهداف منشودة ومحددة، وتدل الممارسة البيداغوجية على الدينامية والفاعلية التي تتم داخل المشاريع التربوية والتي تتوخى تحقيق نتائج مبرمجة. 12

. يحصل الانسجام بين الهوية الثقافية والممارسة البيداغوجية من خلال عملية الوعي والممارسة، إذ لا تتعارض هذه العناصر في تحصيل النتائج بل إنها تساهم فيس بناء مشروع متكامل واحد ومنسجم، ويرتبط ذلك من خلال فاعلية الأداء التربوي الذي يسمح ويساعد على إقامة هذا التمازج بين هذه العناصر وتشكيل وحدة مركبة ذات غاية أساسية . 13

3. تكوين المدرسين على استثمار الهوية الثقافية في الممارسة البيداغوجية

من القواعد الأساسية التي تحقق الانسجام بين البعد الثقافي والمشاريع البيداغوجية تكوين المدرسيين على ذلك، فالمدرس هو الأداة التي تسمح بعملية النقل بنوعيه ، النقل الواعي والمفكر فيه الذي يتمثل أساسا في المعرفة التي تنبني على التخطيط والبحث والدراسة ورؤية واضحة للتدبير وكيفيات التقويم والخلفية النظرية ، كما أن هناك النقل الخفي الذي يتحدد من خلال شخصية المدرس أذواقه تصوراته للعلم وللعالم ، خلفيته الايديولوجية والقناعات الشخصية ونمط الحياة والطبقة والمكانة والجاهزية لأداء المهام، داخل هذه البنية فإن المدرس يشكل قاعدة مركزية إلى جانب المتعلم ومادة التعلم، ويمكن القول إن المدرس يشكل روح المشروع البيداغوجي وأداته الفاعلة[14].

وبذلك فعندما نتحدث عن استثمار العناصر الثقافية التي تنسجم وهوية المتعلم، فإننا في حاجة إلى إقامة تكوين رصين للمدرس إلى جانب الالمام المعرفي، والتشريع و أخلاقيات المهنة وديداكتيك المواد وعلوم التربية، علينا تضمين الوعي الثقافي والاجتهاد البيداغوجي لدى المدرس ، فلا يكفي الوعي بالخصوصية النفسية والاجتماعية وطبيعة فئة المتعلمين، بل ينبغي الوعي بالخصوصية الثقافية سواء على مستوى المجال أو على مستوى الفكر، وهذا يحصل من خلال دمج انثروبولوجيا التربية ضمن مجال التكوين وفتح الباب أمام الاجتهاد في استثمار الدعامات الخاصة بالثقافة والهوية في بناء مقاطع الدروس وكذا استثمار الشأن الثقافي الوطني والجهوي والمحلي في عناصر التكوين ، ولا يحصل ذلك إلا بالانفتاح على مختلف المؤسسات التي تعتني بهذا الشأن، فكل ذلك من شأنه أن يساهم في بناء صرح متكامل الأجزاء أثناء الممارسة المهنية، إن الوعي بالخصوصية الثقافية وطبيعة المتعلم الثقافية مسألة أساسية أثناء لحظة التكوين، إذ يعزز ذلك من مهنية الممارسة القابلة للقياس عند المدرس، كما أنه يرفع عنه القلق تجاه طبيعة المتعلم التي في أصلها نتاج خصوصية ثقافية، فعملية إدماج هذا الوعي المعرفي والمنهجي عند المدرس يسمح بفهم دقيق للمتعلم وتيسير سبل التعلم والتعليم وتقريب مادة المعرفة بما ينسجم والخصوصية .[15]

هذا البناء المعرفي والمنهجي يتم من خلال تخصيص حصص مناسبة ومعقولة للمدرس لممارسة الاطلاع الثقافي والميداني على النظم الثقافية السائدة في المجال الوطني والجهوي والمحلي الذي يمارس فيه أدواره ومهامه، ولا يتم ذلك إلا من خلال منهج الاطلاع الدقيق والمباشر فهو الالية التي تسمح ببناء صورة واضحة حول المطلوب، ويمكن ذلك من خلال الورشات واللقاءات والندوات وتدقيق في نتائج الدراسات والممارسة التطبيقية والميدانية، وتجديد اليات الاشتغال وأدوات البحث ، وتمكين المدرس من وسائل منهجية تسمح له بإقامة التحليل والمقارنة والممارسة الفاعلة، كما أن على المدرس أن يقترب أكثر من الشأن الثقافي من خلال تكريس مبدأ البحث والتجديد والمواكبة، والاقتراب أكثر من العناصر التي تشكل الهوية الثقافية أو بالأحرى تدل عليها أو ترمز لها من قبيل الأفلام، الروايات، الفلكور، الحكايات... إلى غير ذلك مما يسمح من امتلاك صورة أولية حول طبيعة الهوية الثقافية.

كما أنه على بنية التكوين أن تجد الخيط الرفيع الرابط بين النظريات البيداغوجية والهوية الثقافية، وكأننا نقوم بعملية تدجين أو إعادة البرمجة لهذه النظريات حتى تتماشى وواقع المجتمع وخصوصيته الثقافية، لذلك فقضية التكوين قضية دقيقة وحساسة وتتطلب نوعا من الوعي الفردي والمؤسساتي، إذ لا يكفي تلقي المعرفة بل ينبغي التمرس على كيفية إنتاجها دون جلد الذات أو عولمة التربية .

---

[14] . المدرس داخل بنية التربية والتعليم هو الفاعل الأساسي والمحوري في العملية، لذلك فعملية التكوين تتوخى التجويد في الأداء والممارسة بشكل معرفي ومنهجي دقيق.

[15] . فاعلية المدرس مع الوعي بأهمية الخصوصية الثقافية يساعد على تيسير سبل التعليم والتعلم والإبداع والابتكار، لأن ذلك يعزز من مكانة المشروع التربوي ويمنحه بعد ثقافي أصيل يحاكي خصوصية الهوية ويتفاعل معها.

الخاتمة

إن الهوية الثقافية لدى كل الشعوب تشكل روحها وبيتنها الأساسية، ما يضمن نوع من الاستمرارية والانسجام بين الأفراد داخل المجتمع الواحد، ودائما ما يشكل الصورة الكلية للشعوب هي ثقافتها سواء على مستوى الممارسة أو على مستوى التفكير، لذلك فقضية التربية داخل البنية الثقافية تشكل الروح بالنسبة للجسد، فلا يمكن عزل الثقافة عن عملية التربية، لذلك فالمشاريع البيداغوجية مطالبة باحترام هذه العلاقة وبالبناء عليها، وهذا لا يشكل قلق، بل يشكل دعامة أساسية لهذه المشاريع البيداغوجية ويسمح بتحقيق أسمى الأهداف بأقل جهد وبأحسن النتائج، فالمهارات والقدرات والكفايات وما يتطلع له المشروع البيداغوجي يوجد داخل الثقافة وبين طيات الهوية، لذلك فالدعوة لهذا الاستثمار قائم على تجارب عالمية في هذا الشأن، حيث اختارت بعض الدول نمطها الثقافي في ممارسة التعليم والتعلم ومثال ذلك التعليم اسكتلندي الذي يمتح من جذور الهوية الثقافية لأجل بناء لحظة التعليم وكذا التعليم الفيدرالي الألماني والأمريكي الذي يحترم الخصوصية المجالية والأقليات والحاجات اللغوية والدينية، لأنه يجد في هذه الممارسة صناعة لهويته، لكن في مجالات توفر هوية ثقافية مشتركة فالممارسة تشترط ذاتها ، إن هوية الشعوب هي ما يشكلها روحها ولسنا في حاجة لنفي الروح لبناء الجسد.

لائحة المصادر والمراجع:

- انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ديل ايكلمان، طبعة 2022، مؤمنون بلا حدود.
- رهانات البيداغوجيا المعاصرة، عبد الحق منصف، افريقيا الشرق.
- مخاطر العولة على الهوية الثقافية ، محمد عمارة، طبعة 1999.
- الهوية الثقافية: المفاهيم والأبعاد والقيم ، مدكور علي أحمد، طبعة 2013.
- التنوع الثقافي والعولمة، مارتان أرمان، طبعة 2005.
- التعليم وأزمة الهوية الثقافية ، محمد عطيه عبد الرؤوف، طبعة 2005.